قراءة فى كتاب

الشخصية الأمريكية وصناعة القرار السياسى الأمريكى

قراءة: أحمد شعبان

الشخصية الأمريكية وصناعة القرار السياسى الأمريكى

المؤلف: د. باسم خفاجى

الناشر: المركز العربى للدراسات الإنسانية

الشخصية الأمريكية ودورها فى صناعة القرار من الفرد.. وصولاً إلى العقل الجمعى

يناقش الكتاب قضية رئيسة هى تأثير الشخصية الأمريكية على صناعة القرار السياسى الأمريكى، فالعملية السياسية فى أى مجتمع هى نتاج تأثر -غير مباشر- بالطبائع والصفات التى تكوِّن شخصية هذا المجتمع.

لكن ثمة إشكالية قد تواجه القارئ فى تصفحه للمقدمات التى بدأت بها الدراسة؛ فالدراسة فى الأساس تبحث فى مكونات الشخصية الأمريكية بفرديتها متعددة الطبائع وصولاً إلى تأثيرها فى العقل الجمعى للشعب الأمريكى كممثلة له، والعقل الجمعى فى أبسط تعريفاته هو مجموع القناعات التى تتشكل فى عقل الأغلبية من الناس تشكلاً جبرياً يكون فى الغالب عن طريق ما تفرضه السلطة الحاكمة فى أذهان الشعب بشتى الوسائل الإعلامية حتى تخلق حقائق يعتنقها ويساعد فى تحقيقها ما يسمى بإرادة الرأى العام "العقل الجمعى للجماهير".

والعقل الجمعى للجماهير هو أدنى درجات التفكير والاستجابة الغير عقلانية؛ ذلك لأنَّ الحشود الكبيرة دوماً تنزل إلى مستوى الصفات المشتركة التى تجمع بينها، والتى هى فى الغالب صفات غريزية!! بما يعنى تعطل ذكاء "الفرد" المكوِّن للجماهير، ويصبح

محكوماً - وسط الحشود - بتصرفات تلقائية هي أقرب ما تكون إلى الاستجابات اللاشعورية، فيفكر ويشعر ويعمل بطريقة مختلفة تماماً عن التي يمارسها كل فرد على حدة؛ ولهذا فإنَّ الفرد داخل الجماعة يغلب عليه الانقياد والاندفاع، وسهولة التأثر بالإيحاء، وضعف القدرة على التفكير المنطقي الموضوعي، والنقد النزيه(١).

ومن هنا تأتي أهمية دراسة الشخصية "الفردية" الأمريكية بشكل مستقل عن "العقل الجمعي" للشعب الأمريكي، فإن كانت كل جماعة تتكون من أفراد، إلا إنَّ الجماعة -من الناحية النفسية -ليست هي المجموع الحسابي للأفراد؛ لأنَّ التشكيل الجديد -الذي يتكوّن أساساً من الأفراد- يتميز بخصائص مختلفة تماماً لا توجد في "الفرد" الواحد.

الفرد الأمريكي.. تاريخ التشكل:

تتشكل شخصية الفرد -- بشكل عام- عبر شبكة معقدة من المعارف والمعتقدات والعادات المتراكمة التي لا يسهل محوها، والتي تصبح قالباً فكرياً ثابتاً يبنى على أساسه الفرد اختياراته في الحياة.

وقد اهتم السياسيون في أوروبا قديماً بتأثير الفرد في القرارات السياسية، فكانت إحدى الطرق التي تُستخدم لإعادة تشكيل الشخصية الأوروبية في القرون الماضية هي إحياء تقاليد بعينها من الماضي، وتوظيف هذه التقاليد في إيقاظ التنافس القومي لإحباط مساعي الإمبراطوريات في إقامة أنظمة مركزية.

وتميز المجتمع الأمريكي في بدء تشكله بتعدد أنماط شخصياته وتنوعها؛ بل وتناقضها أيضاً، فقد تعددت أسباب هجرة الأمريكيين من أوروبا إلى "العالم الجديد"، فمنهم من فر من الاضطهاد الديني، ومنهم من فر من تاريخ إجرامي يلاحقه، ومنهم من جاء لإقامة "مملكة الرب"، واشتركوا جميعاً في الرغبة في حياة جديدة تمحى تاريخهم القديم، وهو الأمر الذي عبّر عنه أحد مؤسسي الدولة الأمريكية " إبراهام لنكولن" في قوله: "الأمريكيون لا يهتمون من كان أجدادهم.. المهم مَنْ هم الآن".

أمريكا إذن بلد ذات تاريخ ضئيل - لا يُذكر - وجغرافيا شاسعة ممتدة، فمواجهة

العالم الجديد كانت تتطلب التخفف من تاريخ مرهق ومثقل بالتبعات والمسؤوليات، ولعل تلك النظرية تتجلى بوضوح فى طريقة ونمط تفكير أحد أشهر الشخصيات السياسية الأمريكية، فالرئيس الأمريكى السابق "بيل كلينتون" حين أراد أن يحل معضلة القدس، رأى أنَّه من مصلحة العرب أن يتركوا القدس لإسرائيل، وإن أصر المسلمون فبإمكانهم إطلاق اسم "القدس" على أية قرية قريبة لا تبعد كثيراً عن "القدس الأصلية"؛ فإنَّهم فى أمريكا قد فعلوا ذلك كثيراً فهناك مدن أمريكية اسمها "القدس" و"القاهرة" و"بيروت"!

إذن الشخصية الأمريكية المتخففة من أعباء التاريخ، يمكن أن تحول مشكلة كبيرة مثل "القدس" من قضية تاريخ إلى قضية جغرافيا.

ورغم ذلك كان "الدين" - باعتباره أحد الموروثات القديمة - أحد أهم دوافع الهجرة للعالم الجديد، حيث كان من بنود نشرة (معلومات لمن يريدون الانتقال لأمريكا) التى كتبها "بنجامين فرانكلين": "عدم الإيمان بالرب غير معروف هنا، ويمكن للإنسان فى هذه البلاد أن يعيش عمراً طويلاً دون أن تتعرض تقواه لأى صدمة أخلاقية من جراء مقابلة كافر أو ملحد".

وكان من أهم الطوائف المتدينة المهاجرة "طائفة البيوريتانيين -أية التطهيريين- التى فرت من اضطهاد الكنيسة الإنجليزية وكانت تؤمن بمعتقد "الشعب المختار" والتى كانت تهدف إلى إقامة "أرض ميعاد جديدة"، حين سموا رحيلهم من انجلترا "خروجاً توراتياً جديداً"، وبسبب معتقد "الشعب المختار" حدثت أكبر مجازر التطهير فى القارة الأمريكية، فمن أجل أن تسود "مملكة الرب" بأيدى "الشعب المختار" لابد من استئصال كل من يواجهها، وتشكل تبعاً لذلك مفهوم "القوة المستمدة من الرب" لدى الشخصية الأمريكية التى أصبحت تؤمن بالقوة كحل مطلق لكل العقبات التى تعترض إنشاء مملكة الرب.. المصالح "الدنيوية" تحتاج إلى قوة كى تتحقق، وكذلك القيم "الدينية" لا تنتشر بغير القوة!

لذلك نرى الشعار المحرك "من أجل الرب" قد استخدمه الساسة الأمريكيون بإلحاح في مواقف ليس للقوة فيها مبرر فعلى كغزو أفغانستان والعراق على سبيل المثال.

الأوروبي والأمريكي.. هل هما "شخص غربي" واحد؟!

ينقلنا الفصل الثالث إلى عقد مقارنة بين الشخصية الأمريكية والأوروبية، حيث يشير في البداية إلى التباس ربما يقع فيه كثير من المفكرين حين ينظرون للأوروبي والأمريكي كأنهما "شخص غربي" واحد، وربما يتشابه النموذجان في بعض العادات والأخلاقيات، إلا أنَّ ثمة فوارق كبيرة في النواحي الفكرية والثقافية لا يمكن تجاوزها.

ويمثل عنصر "القوة" أهم تلك الفروق؛ فبينما يتعامل الأوروبي مع "عقدة القوة" بشيء من الحذر والفتور وربما الشعور بالذنب بسبب ما ألحقه بالعالم قديماً حين امتلكها "مثال الحربين العالميتين"، في حين يمثل امتلاك "القوة" ولعاً لدى الشخصية الأمريكية، حيث هي تغرم بها كحل أوحد يأتي على رأس خطط التحرك والمواجهة؛ ولهذا نرى دلالة اختلاف تعاطي كلا النموذجين مع قضية مثل العراق، فبينما فضل الأوروبيون احتواءها، كان الأمريكيون يصرون على طرح خيار القوة من البداية.

كذلك يمثل "الدين" عنصر اختلاف آخر بين النموذجين الأوروبي والأمريكي، ففي الوقت التي أقصت فيه الدول الأوروبية الدين وعزلته في الكنائس، سعت الشخصية الأمريكية لإخراجه واستئناسه والبدء في تطويعه لخدمة مصالحها مع الاحتفاظ بالهوة العلمانية التي تفصله عن التدخل المباشر.

فالقادة المؤسسون لإمبراطورية العالم الجديد استخدموا "الدين" كأداة للتأثير على العقول والقلوب، فلا تنتهي خطبة سياسية حماسية إلا بدعاء أن يحفظ الرب أمريكا؛ لأنَّها تفعل ذلك من أجله، وأصبح الدين يخدم علمانية الدولة مثل أن يبرر استخدامها القوة من أجل نشر قيم تغلف مصالح وأطماع تلك الشخصية المتناقضة.

رسم ملامح الشخصية الأمريكية

نجح الباحث -الذي عاش في الولايات المتحدة قرابة ١٨ عاماً- في رصد تسعة

عشر ملمحاً، أو سمة تميز الشخصية الأمريكية، حيث هناك سمات ذات تأثير مباشر على صنع القرار السياسى الأمريكى، وسمات أخرى تشكل فى محصلتها العقل الجمعى للشعب الأمريكى، وكان أهم تلك السمات:

الفردانية: فالأمريكى يقدس ما يمكن أن نسميه "لا نهائية استقلال الإنسان" كما عبر عنها الفيلسوف الأمريكى "رالف والدو"، وحيث كانت تسود الصورة الذهنية لراعى البقر الأمريكى الذى ينقذ العالم من الأشرار ثم يرحل وحيداً، كانت تتعمق النزعة الفردية لدى أفراد المجتمع، فراعى البقر وحده من يعرف الأشرار ويقرر أنهم كذلك! وهو من يحاربهم دون أن يطالبه أحد، وينقذ من قد لا يرغبون فى ذلك، تلك الصورة التى لا تسعى لتقديس فردانية الشخص واستقلاله بقرارات حياته المصيرية قدر ما تريد القول أنَّ البطل الذى ينال إعجاب الناس فى النهاية بما فعله هو من قاوم الالتحاق بالجماعة والمشاركة فى قراراتها.

ولعل التفكك الاجتماعى وانهيار الأسرة الذى يعانى منه المجتمع الأمريكى الآن يرجع فى أهم أسبابه إلى الفردية وأنانية الفرد الذى يعرف أنه أهم من الجماعة.

الشعور بالاستثنائية: ذلك الشعور الذى ولدته النزعة الدينية القديمة "الشعب المختار الذى جاء ليقيم مملكة الرب الجديدة"، تلك النزعة التى تسوغ له بالتالى ارتكاب كل الحماقات التى يرى باستمرار أنَّها الصواب!!.

النفعية والبرجماتية: تطور مفهوم البرجماتية النفعية لدى الفرد الأمريكى ليصير معادلا للأديان السماوية، حيث حددت الطبيعة النفعية علاقة الفرد بالفرد، وعلاقته بالطبيعة؛ بل وعلاقته بالإله الخالق.

لذلك لم تكن السياسة فى نظر الأمريكى صراعا من أجل المبادئ والقيم.. اللهم قيمة المصلحة والنهج الذى يحققها.

التناقض: يرجع التناقض فى المجتمع الأمريكى نتيجة تكونه من خليط مختلف من البشر جاءوا من أماكن متعددة بأفكار وآمال وطموحات مختلفة، كونت فى النهاية ذلك الكيان المتناقض المتباين.

ويتجلى ذلك التناقض فى الرؤى المختلفة لسياساتها الخارجية، حيث دعواتها المستمرة لتصدير الحلم الديمقراطى للعالم العربى باستخدام أساليب "ديكتاتورية" لفرض هذا الأمر، وكذلك تسويقها فكرة حماية حقوق الإنسان إلى العالم، ثم انتهاكها لتلك الحقوق داخل أراضيها!

الرغبة فى التوسع: لم تخف الرغبة التوسعية عند الأمريكى منذ مجيئه إلى العالم الجديد الذى كان بالنسبة له موطناً وليس وطناً، موطناً دون تاريخ، ودون حدود جغرافية؛ لذلك كان كل من يقدر على اختراق الأفق ليضم قطعة جديدة للأرض كان يفعل ذلك دون تردد!! فكلمة "الحدود" -كما يقول روجيه جارودى- لم تكن مدرجة فى قاموس الفرد الأمريكى مثل رديفتها فى أوروبا، "إنَّما كان الفضاء الجغرافى أمامه مفتوحاً لكل أنواع السلب، وأشكال الإبادة"، فالتوسع -الذى صار مزاجاً نفسياً- كانت تطور طبيعى للنزعة الفردية البرجماتية التى تشكلت عقب مجيئه.

وفى سعيه إلى تحقيق رغباته التوسعية يتولد عنده ميل همجى إلى العنف واستخدام القوة المفرطة حتى فى أبسط حالات التنفيس عن الشعور بالضيق!!

نقص الاهتمام بالخارج: وهى السمة التى تعكس عيباً معرفياً يكون له دور سلبى فى رؤية الأمريكى للآخر خارج بلده، ففى دراسة أجراها مجلس شيكاغو للعلاقات الخارجية عن اهتمام الشخص الأمريكى بالسياسة الخارجية وأخبار العالم وجد أنَّ ٢٩٪ فقط من الشعب الأمريكى ممن يهتمون بأخبار البلدان الأخرى، ولعل النسبة زادت قليلاً عقب أحداث ١١ سبتمبر، إلا أنَّ المؤكد أنَّها تعود إلى التضاؤل مرة أخرى، بسبب سعى بعض وسائل الإعلام لاستثمار ذلك النقص فى نقل صورة مشوهة غير مكتملة عما يحدث فى الخارج وتصديرها إلى الأمريكى كما تريدها هى.. لا كما تحدث فعلاً!!.

دورنا فى التأثير.. صياغة ناقصة!

فى سعيه لصياغة تصورات عملية لكيفية التأثير فى الشخصية الأمريكية التى تؤثر بدورها فى صناعة القرار السياسى الأمريكى، يطرح الباحث تصوره الذى يعتمد على

تقديم نماذج متميزة للشخصية المسلمة تواجه الصورة الذهنية المزيفة عن العرب والمسلمين فى الغرب عامة وعند الأمريكيين خاصة.

كما يوصى بضرورة إنشاء لوبى عربى إسلامى داخل الولايات المتحدة الأمريكية يتولى حشد الأصوات والأموال للتأثير السياسى طويل المدى، إضافة إلى الحاجة الملحة إلى إنشاء مراكز بحثية تهتم بدراسة البنية العقلية للشخصية الأمريكية.

وإن جاءت التصورات التى اقترحها الباحث لدورنا فى التأثير وتوجيه عقلية الفرد الأمريكى لصالح قضايانا قاصرة بعض الشىء، إلا أنَّ تفصيل الكتاب للشخصية الأمريكية جاء بمثابة إضافة معرفية جديدة كانت تفتقدها المكتبة العربية؛ لتفتح آفاقاً جديداً للمزيد من البحوث التى تساعد فى شق طريقنا إلى فهم البنية العقلية للفرد الأمريكى.

ينبغى علينا التفريق فى تلك المسألة بين "العقل الجمعى" للغرب، و"العقل الجمعى" الإسلامى، فإنَّ الجماهير المسلمة تتحرّك فى سلمها وحربها على هدى من شرع الله عز وجل، والعقل الجمعى الإسلامى ليس عقلاً عشوائياً ولا غوغائياً. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تجتمع أمتى على ضلالة"، وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا لم تستح فاصنع ما شئت".

والفرد المسلم إزاء هذا العقل الجمعى عقل يقظ حذر، لا يذوب فيه، ولا ينجرف معه، ولا يفقد استقلاليته التى يستمدها من الشرع، وهو فى خضم هذا العقل كذلك لا يفقد سيطرته على إدراكه.

❊ ❊ ❊